بلاد القصيم

في عام ١١٨٢ هـ. وقف عبدالعزيز حملاته على الرياض، وبدأ يفكر في الاستيلاء على القصيم ليزداد بهـا قوة ومنعة ، قبل استئنافه القتال مع خصميه العنيدين ابن دواس وابن زامل وغيرهما من أعداء الدعوة ..

غزو عنيزة :

يقول ابن بشر ان حمود الدريبي ، رئيس بلدة بريدة ، طلب عام ١١٨٢ من عبد العزيز أن يبعث جيوشه إلى القصيم لنصرة رجال الدعوة، فأرسل اليهم ابنه سعود بجموع المسلمين فنزلوا باب شارخ من عنيزة ، ونشب القتال بينهم وبين أهل البلد ، فقتل من أهل عنيزة ثمانية رجال ، وقتل من الغزو رجال .

وقدّر ابن غنام غزو المسلمين بمائة راكب فقط، وقال إنهم أظهروا في القتال من الشجاعة والإقدام ما بهر العقول ، وسقط منهم ثلاثة شهداء ، وقتلوا عشرة من خصومهم ، ثم عادوا إلى بلادهم .

وهكذا كانت عنيزة أول بلدة في القصيم غزاها جيش عبد العزيز ، ولكنها كانت كذلك آخر بلدة في القصيم استسلمت إليه !

معركة الهلالية وبيعة القصيم :

في عام ١١٨٣ هـ . سار عبد العزيز إلى حريملا ، وأقام فيهـا مدة وبعث إلى

بلدان الموحدين أن يخرجوا له (دولا) – أي مقاتلة – فأخرج أهل سدير والمحمل كثيراً من المقاتلين فسار بهم وبمن معه إلى الجمعة فأغار عليها وقتل عدداً من أهلها منهم أخو رئيس الجمعة، ثم صرف رجال سدير والمحمل إلى بلدانهم وسار بجيشه إلى «الهلالية»، فوصلها ليلاً، فأعدّ غزاته وهيأ كمينه، ثم أغار على البلدة صباحاً، فنهض أهلها لمقاومته ولكنهم عجزوا عن ذلك، فاستولى الموحدون على البلدة وأخذوا أموالها وقتلوا عدداً من رجالها، ثم نودي فيها بالأمان، وأقام فيها عبد العزيز أياماً، ليرى أثر المعركة في نفوس سكان القصيم، قال ابن غنام :

(فذلّ أهل القصيم كافة، وغشيهم أمر عظيم من المخافة، فرغبوا في الدخول في الإسلام، والإنقياد لمنير تلك الأحكام، وأقبلوا على عبد العزيز في تلك الأيام، فأخذ عليهم عقد الإبرام، ووضع عندهم معلمين للتوحيد والشرع والأحكام، وعاد عبد العزيز إلى الدرعية، ليقسم فيها الغنيمة بالسوية) .

غزو عريعر للقصيم .. وموته فجأة :

لم يكد عبدالعزيز يفرغ من فتح الرياض ويأخذ قسطاً من الراحة حتى فوجيء بزحف خطير يهدد أمن بلاده وسلامتها، وهو زحف عريعر بن دجين، صاحب الأحساء، الى القصيم في عام ١١٨٨ هـ .

وصل عريعر الى بريدة، وكانت هدفه الأول، فقد كان ناقماً عليها لانضوائها تحت راية الدعوة، بعد أن كانت خاضعة لنفوذ أمراء الأحساء .

جاءت مع عريعر جموع كبيرة من بني خالد وعنزة، ولكنه لم يشأ أن يبدأ بريدة القتال، وإنما أحب أن يأخذها بالمكر والحيلة، فنزل عند أسوارها وأرسل الى أميرها عبدالله بن حسن يطلب منه الخروج اليه للمفاوضة، فلما خرج اليه غدر به وأسره، ودخل البلدة على حين غفلة من أهلها وانتشرت بواديه بين دورها يحطمون أبوابها وينهبونها، ثم سلّمها الى أميرها السابق راشد الدريبي،

الذي كان سعود قد عزله ، وبذلك اضطر الموحدون من أهل بريدة الى الهرب منها والجلاء عنها ، وفي مقدمتهم آل عليّان ، فكاتبهم عبد العزيز واستقدمهم الى الدرعية وأسكنهم فيها مكرَّمين معزَّزين[1] .

يحاربون مع .. ابليس !

خرج عريعر من بريدة بجموعه الوفيرة ونزل أرض الخابية ، على مقربة من النبقية ، وأقـام فيها قرابة شهر ، فكاتبه رجال من نجد وطلبوا منه المسير الى بلدانهم ووعدوه النصرة .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن :

(ولما قيل لرجل منهم – أي من أهل نجد الذين ساعدوا عريعر – وهو من أمثل علمائهم وعقلائهم : كيف أشكل عليكم أمر عريعر وفساده وظلمه ، وأنتم تعينونه وتقاتلون معه ؟

قال : لو أن الذي حاربكم إبليس ، لكنا معه) .

موت عريعر فجأة :

يقول ابن بشر : إن وطأة عريعر اشتدت وخافه الناس (واستعد للمسير الى الدرعية وغيرها من البلدان ، فعاجله أمر الله سبحانه في موضعه ذلك في الخابية المذكورة ومات) .

ويقول مانجان : إن عريعر خرج من خيمته يوماً الى البر يتصيَّد بالصقور ، فرأى أرنباً من بعيد فأصابه ، ولكن أحد رجاله أخذه لنفسه، فأحضره عريعر اليه وقال له : لماذا أخذته ؟

قال : لأحضره اليك !

قال : أنت كاذب !

واستلَّ عريعر سيفه وانهال على الرجل طعناً وضرباً بالسيف حتى قتله .

---

(١) انظر ابن غنام ومانجان وتاريخ الأحساء .

ولكنه مرض من الجهد الذي بذله في قتل الرجل ومات ، فكان ضحية قسوته وظلمه !

وهكذا كان موت عريعر نجاةً لنجد من كيده وغدره ، وخيبةً لآمال الأحزاب التي تعلقت به، فقد اضطرت جيوشه الى التراجع والعودة الى الأحساء لا تلوي على شيء [1].

استسلام بريدة :

في عام ١١٨٩ هـ. أمر عبد العزيز ابنه سعود بالسير الى بريدة ، فوصلها ليلاً وباغت أهلها بغارة شديدة ، فتحصنوا في منازلهم ، ولم يستطع سعود اقتحام البلدة مع طول حصاره لها ، فأمر ببناء حصن قريباً منها ، ووضع فيه مرابطة من رجاله وأمّر عليهم عبد الله بن حسن ، وعاد الى الدرعية .

وقد فعل هذا الحصن فعله .. لأن رجاله كانوا يغيرون كل يوم على بريدة وينشرون الخوف والرعب بين أهلها ولا يدعون أحداً منهم يخرج لرعي سائمة .. وهكذا اضطر أمير بريدة الى الاستسلام ، فأرسل الى عبد الله بن حسن يعرض عليه الخروج من البلدة بشرط أن يعطيه الأمان على نفسه ، ففعل ودخل عبد الله بلدة بريدة واستولى على كل ما فيها من أموال ، وقتل خمسين من رجال راشد الدريبي أمير بريدة المنهزم وعاد هو الى إمارة البلد .

مبايعة القصيم :

أظهر أهل القصيم ، بعد استسلام بريدة ، رغبتهم في السلام والولاء ، فجاء وجوه أهل القصيم إلى عبد الله بن حسن وذهبوا معه إلى الدرعية وهناك بايعوا

---

(١) خلف عريعر في إمارة بني خالد والأحساء ابنه (بطين) ، وكان له أخوان ينافسانه، وهما : سعدون ودجين ، فحاول بطين استمالة الجنود والعامة اليه بأموال وزعها عليهم ، ولكن أخويه قتلاه خنقاً وخلفه دجين ، ولكنه مات بعد قليل ، وقيل : سمه سعدون وجلس مكانه .
(ابن بشر)

لعبد العزيز على الاسلام والسمع والطاعـة ، فأقر عبد العزيز كل أمير في مكانه وجعل أميراً عليهم كلهم عبد الله بن حسن .

ثورة ... ومكاتبة سعدون :

استقرت الامور وساد السلام في القصيم سبع سنوات تقريباً،وفي عام ١١٩٦ تواطأت بلدان القصيم — باستثناء بريدة والرس والتنومة — على التمرد ، وكتب زعماؤهـا إلى سعدون بن عريعر أنهم مصممون على قتل رجال الدعوة الموجودين في بلدانهم ، وطلبوا منه الاسراع الى نجدتهم ، ففعل ..

بدأ أهل القصيم تنفيذ خطتهم من اللحظة التي اقترب فيها سعدون من ديارهم، فقام أهل الخبر بقتل منصور وثنيان أبا الخيل ، وأرسل أهل عنيزة فقيهين من فقهاء الدعوة كانا يعلمان الدين عندهم إلى سعدون فقتلهما ، وفعلت بقية البلدان المتمردة مثل ذلك .

بطولة بريدة :

جاء سعدون بجموعه من بني خالد والظفير وبوادي عنزة الى القصيم ، ونزلوا عند بريدة وحاصروها ، وكانوا يظنون أنهـا ستقع في أيديهم بسهولة ويسر ، ولكن أهلها قاوموا الغزاة ببسالة وبطولة ،واستطاعوا إفناء الطليعة التي أرسلها سعدون لدخول البلدة .

قال ابن غنام : (... فاستشاط سعدون لذلك غضباً ، فحشد جموعه وهجم على البلدة ، فقـُتِل من جماعته في أول يوم من أيام الهجوم أناس ، فحاول في اليوم التـالي تسوُّر جدار البلدة فقتِل جميع الذين صعدوا على السور وبقوا زمناً لا ينقلون ولا يدفنون من شدة القتـال ، ثم نصب آلاته ومدافعه لهدم السور وبروج البلدة فلم يستطع أن ينال من ذلك شيئاً ، وكان في أثناء ذلك قـد بنى قصراً وضع فيه عـدة رجال من ذوي البأس ، فخرج المسلمون الى ذلك القصر ليلاً فهدموه وقتلوا من كان فيه .

اختراع حربي طريف وتراجع سعدون :

انقضت خمسة أشهر وسعدون ومن معه لم يبلغوا من غايتهم شيئاً ، فعزم سعدون على اقتحام البلدة فصنع تروساً من الخشب، كانوا يسمونها « عجلاً » تردّ الرصاص عمن فيها فلا يضره ، ثم حمل على البلدة حملة هائلة ، وصالت تلك الجموع وجالت ، وكانوا يساقون بالسيوف من أعقابهم لكيلا ينكصوا ويهربوا ، وهجموا على سور البلدة ومرقبها وبروجها يريدون الاستيلاء عليها ، فنشب بين الفريقين قتـــال شديد وقع فيه كثير من القتلى ، ثم شاء الله ألاّ يبلغ سعدون وجماعته ما أملوه ، وأن ينكصوا عن البلدة على أعقابهم خائبين .

الرجوع الى الطاعة :

بعـــد أن انتهت الحرب ، ورجع سعدون وجماعته إلى أوطانهم خائبين ، ضاقت الأرض بمن كان قـد ارتدّ ونقض العهد ، فلم يجدوا مفراً من الدخول في حوزة الاسلام ، فأقبلوا على حجيلان — أمير بريدة — يعطونه العهد ويقرّون بالايمان ، فقبل منهم ذلك وأعطاهم الأمان ، بعد أن شرط عليهم الغرامة ، فأسرعوا اليه وحداناً ومجتمعين ووفدوا عليه بلداً بلداً ، ولم يتخلف منهم إلا أهل عنيزة (١) .

عنيزة :

في عام ١١٩٨ غزا سعود عنيزة ، ولكنه لم يستطع دخولها ، ويبدو أن عنيزة لم تدخل في طاعة عبد العزيز إلا عام ١٢٠٢ ﻫ . ففي ذلك العـام غزاها سعود ودخلها وأجلى عنها رؤساءها آل رشيد وأمّـر عليها عبد الله بن يحيى (٢).

---

(١) يضيف ابن غنام أن ركباً من أهل بريدة سار في أثر سعدون بعـد انسحابه ، فصادفوا جماعة من الرجال فنازلوهم وقتلوهم جميعاً وأخذوا ما معهم من الأموال ، وقد كان مع تلك الجماعة مال كثير لأناس من أهل المدينة، فأمر عبد العزيز بأدائه تاماً غير منقوص لأنه كان أوقافاً وأحباساً.

(٢) اسمه في رواية ابن غنام علي بن يحيى ، وفي رواية ابن بشر : عبد الله .